نظام الحكومة في عهد عبد الرحمن الداخل

وقد اتبع عبد الرحمن الداخل سُنّة أسلافه بالمشرق في تبسيط الرسوم والإجراءات والنظم، وأنشأ منصب الحجابة، ولكنه لم يُنشئ مناصب الوزارة، بل استعاض عنها بأعوان وأشياخ يعاونونه في القيام بمهام الحكم، وليست لهم سمة الوزارة، وإنّما هم أقرب إلى الخاصة وأهل الشورى.

واختار أعوانه في البداية من أصدقائه الذين استقبلوه يوم مقدمه، وآزروه وقاتلوا معه، فولّى حجابته تمام بن علقمة، ثم ولاها من بعده ليوسف بن نجت الفارسي مولى عبد الملك بن مروان، ثم عبد الكريم بن مهران الغساني، ثم عبد الرحمن بن مغيث ولد مغيث فاتح قرطبة، وولاها في آخر أيامه لمنصور الخصبي، فلم يزل في حجابته حتى توفى، وعيّن لمشورته أبا عثمان بن عثمان كبير أنصاره، وصهره عبد الله بن خالد، فكانا لفترة طويلة دعامة حكومته، وكان من أعوان حكومته أيضًا جدار بن عمرو، وأبو عبده حسّان بن مالك زعيم إشبيلية، وسُهَيد بن شهيد، وعبد السلام بن بسيل الرومي، و هما من موالي بني أمية، وثعلبة بن عبيد الجذامي الذي ولاه سرقسطة فيما بعد، وعاصم بن مسلم الثقفي وهو من خاصة أنصاره يوم المسارّة [١].

وولى قيادة عسكره مولاه بدر، وتمام بن علقمة، وعبد الملك المرواني، وثعلبة ابن عبيد، وغيرهم من خاصة عصبته.

وقد كان عبد الرحمن يتولى بنفسه قيادة الجيش في معظم الوقائع والحروب التي نشبت بينه وبين خصومه كما رأينا، وولى عبد الرحمن على الكور والثغور جماعة مختارة من أصدقائه، وذوي رحمه الوافدين عليه.

---

(١) «نفح الطيب» (جـ١، ص١٥٦).

خلاصة الأمر:

فإن حكومة عبد الرحمن الداخل كانت تقوم في البداية على العصبية والموالاة، وكانت عربية في بنائها وروحها، ولكن الخصومة المستعرة التي شهدها زعماء القبائل والبطون المختلفة على عبد الرحمن، والثورات المستمرة الي عملوا على إضرامها من حولها، و نكثهم المتكرر بعهودهم، حمله على الشك والريبة بالعرب والحذر منهم، فمال عنهم إلى اصطناع الموالي والبربر، ولاسيما بربر العُدة (المغرب)، وحشد حوله من الموالي والبربر والرقيق آلافًا مؤلفة؛ لتكون له وقت الحاجة عونًا يركن إليه ويثق به، وكان ذلك قاعدة للسياسة التي استمر عليها خلفاء عبد الرحمن، وساروا على نهجها من بعده، والتي بلغت ذروتها في عهد عبد الرحمن الناصر – كما سنرى – (١).

سياسة عبد الرحمن نحو نصارى العرب والشمال:

كانت سياسة عبد الرحمن الداخل نحو نصارى العرب والشمال سياسة اعتدال ومهادنة، ولم يفكر عبد الرحمن في غزو أرض النصارى؛ لانشغاله المستمر بأمر الثورات الداخلية، وكان يُرحب بعقد السلم والمهادنة معهم.

وقد أصدرَ عبد الرحمن لجيرانه نصارى قشتالة عقد أمان يؤيد ما قيل عن سياسة المهادنة والأمان والسلم معهم، وجاء في هذا العقد:

« بسم الله الرحمن الرحيم، كتاب أمان الملك العظيم عبد الرحمن، للبطارقة والرهبان والأعيان والنصارى والأندلسيين أهل قشتالة، ومن تبعهم من سائر البلدان. كتاب أمان وسلام، وشهد على نفسه أن عهده لا يُنسخ ما أقاموا على تأدية عشرة آلاف أوقية من الذهب، وعشرة آلاف رطل من الفضة، وعشرة آلاف

---

(١) المصدر السابق (جـ٢، ص٦٧) .

رأس من خيار الخيل، ومثلها من البغال، مع ألف درع وألف بيضة، ومثلها من الرماح في كل عام إلى خمس سنين، كُتب بمدينة قرطبة ثلاث من صفر عام اثنين وأربعين ومائة (٧٥٩م)[١].

مواهب عبد الرحمن الداخل الإدارية:

كان هذا الرجل يتمتع بمواهب إدارية؛ فاستطاع خلال الاضطراب الشامل أن يوطد دعائم الحكم والإدارة، وأن يقمع كثيراً من ضروب الفساد والبغي، وأن يؤيد هيبة القانون والنظام، ولما توطد سلطانه وخبا ضرام الثورة نوعًا ما، استطاعت الأندلس أن تتمتع في ظل حكومته بأمن وطمأنينة ورخاء لم تعرفها منذ زمن بعيد، ولو لم يشغل عبد الرحمن طوال عهده بقمع الثورات والفتن الداخلية لاستطاع - كأسلافه - الفاتحين الأوائل، أن يبعث الأندلس خلقًا جديداً، وأن يجعل منها حديقة يانعة، على أنه ذلل الصعب ومهّد الطريق لعقبه، واستطاع أن يضع دعائم تلك المملكة، التي غدت على يد بنيه أعجوبة العصور الوسطى.

ويحدث المؤرخون ومنهم: ابن حيان مؤرخ الأندلس عن مقدرة عبد الرحمن الداخل وكفايته الإدارية، فيقول:

«إنه دوّن الدووابن، و رفع الأواوين، وفرض الأعطية، وعقد الألوية، وجنّد الأجناد، ورفع العماد، وأوثق الأوتاد، فأقام للملك آلته، واخذ للسلطان عدّته»[٢].

---

(١) انظر «الإحاطة» لابن خطيب.

(٢) «نفح الطيب» (جـ١، ص١٥٥).

عناية عبد الرحمن الداخل بالجيش:

بطبيعة الحال فإنّ سند عبد الرحمن وسلاحه القويّ يتمثل في جيشه الذي استخدمه في توطيد أركان دولته، فقد عنى عبد الرحمن بالجيش عناية فائقة، ورعاه رعاية خاصة، فجنّد المتطوّعة والمرتزقة من كل صوب، وبلغت قواته مئة ألف مقاتل، هذا عدا حرسه الخاص الذي أنشأه من الموالي والبربر والرقيق، حسبما قدمنا، ويبلغ زهاء أربعين ألفًا[١].

كذلك عنى عبد الرحمن في أواخر عهده بأمر البحرية (القوات البحرية) فأنشأ عدة قواعد لبناء السفن في بعض الثغور النهرية والبحرية، مثل طركونة وطرطوشة وقرطاجنة وأشبيلية وغيرها.

وقد قيل أن عبد الرحمن لما توطد ملكه، وكثرت قواته وعدّته، فكّر في استرداد ملك بني أمية بالشام، والرحيل إلى المشرق ببعض قواته، واستخلاف ولده سليمان على الأندلس، وأيده في ذلك خاصة أسرته ومواليه، وكان ذلك في سنة (١٦٣هـ)، ولكن اضطرام الثورة في سرقسطة حال بينه وبين ذلك العزم، وتوفي قبل أن تسنح فرصته لتنفيذه[٢].

عنايته بقرطبة:

أصبحت قرطبة حاضرة (عاصمة) الدولة الأموية الجديدة، فكان لابد من الاعتناء بها، فقام عبد الرحمن بتحصينها وتزيينها بالمنشآت الضخمة الفخمة، والرياض اليانعة، وكان أول ما أنشأ بها في عهده منية (مدينة) الرصافة وقصرها الرائع، وكان قصر الإمارة بناءً قديمًا ساذجًا، يرجع إلى عهد القوط، فرأى عبد الرحمن أن يُنشئ ضاحية ملوكية جديدة، تليق بحاضرة ملكه، وتُعيد

---

(١) «نفح الطيب» (جـ٢، ص٦٧).

(٢) «نفح الطيب» (جـ١ ص١٥٦، جـ٢ ص٧٦).

ذكرى مجد وبهاء بني أمية بالمشرق؛ فأنشأ في شمال غربي قرطبة قصراً فخماً تُحيط به حدائق زاهرة، وجلب إليه مختلف الغروس والبذور والنَّوى من الشام وإفريقية، وسمى تلك الضاحية الجديدة بـ«الرصافة» تخليداً لذكرى الرصافة التي أنشأها جده هشام بالشام، واتخذها مقامًا ومنتزهًا ومركزًا للإمارة، وكانت حدائق الرصافة أُمّاً لحدائق الأندلس، ومنها انتشرت بالأندلس غروس الشام وإفريقية[١].

وفي سنة (١٥٠هـ) بدأ عبد الرحمن بإنشاء سور قرطبة، وكان موضعه كنيسة قوطية قديمة، وجلب إليه الأعمدة الفخمة والرخام المنقوش بالذهب واللازورد، ولكنه توفي قبل إتمامه، فأتمه ولده هشام، وزاد فيه من بعده ملوك بني أمية، حتى غدا أعظم مساجد الأندلس، وبلغ ما أنفقه عليه عبد الرحمن الداخل وحده زهاء مئة ألف دينار[٢]، وهذا الإنفاق يدل على مدى سعة المسجد، واتساع مساحته، وفخامة إنشائه؛ لأن عبد الرحمن لم يدّخر مالاً في سبيل إخراج هذا المسجد كتحفة معمارية، وقد أنشأ عبد الرحمن الداخل أيضًا في قرطبة دارًا للسكّة، تُضرب فيها النقود على نحو ما كانت تُضرب في دمشق أيام بني أُميّة وزنًا ونقشًا.

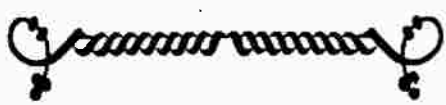

(١) «نفح الطيب» (جـ١ ص٢١٧).

(٢) المصدر السابق (جـ٢، ص٦٧).

عبد الرحمن الداخل الإنسان

كان عبد الرحمن الداخل جواداً كريمًا، جمّ البساطة والتواضع، يؤثر لبس البياض ويعتمّ به، يُصلي بالنّاس أيام الجمع والأعياد، ويحضر الجنائز ويصلي عليها، ويعود المرضى، ويزور الناس ويُخاطبهم، ولم يخرج على هذه الخلال والصفات إلاّ في أواخر عهده، حينما نصحه بعض خاصته بالترفّع، استبقاءً لهيبة الملك، والحذر من بوادر العامة وشر المتآمرين[١].

وقد كان في نقش خاتمه «عبد الرحمن بقضاء الله راض»، و«بالله يتقِ عبد الرحمن، وبه يعتصم» مما يدل على ذلك التواضع الجمّ[٢]، حيث لم يتخذ لقب المظفر أو الناصر أو المنصور، وما إلى ذلك من ألقاب.

أولاً - عبد الرحمن الشاعر والأديب:

كان عبد الرحمن شاعراً جيّد النظم، ناثرًا فصيح البيان، قويّ الترسل، عالمًا بالشريعة، وكان يعتبر من أعظم بني مروان مكانة في البلاغة والأدب[٣]، وقد انتهت إلى المؤرخين بعض رسائله وفيها تبدو قوة بيانه وفيض بلاغته، ومن ذلك رسالة موجزة وجهها إلى سليمان بن يقظان حين خروجه عليه:

«أما بعد، فدعني من معارض المعاذير، والتعسف عن جادة الطريق، لتمدنّ يداً إلى الطاعة، والاعتصام بحبل الجماعة، أو لألقينّ بناتها على رصف المعصية، نكالاً بما قدمت يداك، وما الله بظلاّم للعبيد»[٤].

---

(١) المصدر السابق (جـ٢ ص٦٧)، وانظر البيان المغرب (جـ٢ ص٥٠).

(٢) المدر السابق.

(٣) «البيان المغرّب» (جـ٢، ص٥٠).

(٤) «نفح الطيب» (جـ٢ ص٦٨).

ومنها رسائله إلى مولاه بدر، يزجره عن تمرده وانحرافه، وقد كتب إليه حين الحج في طلب العفو والمنة:

«لتعلم أنك لم تزل بمقتك حتى ثقلت العين عن طلعتك، ثم زدت إلى أن ثقل على السمع لكلامك، ثم زدت إلى أن ثقل على النفس جوارك، وقد أمرنا بإقصائك إلى أقصى الثغر»(١).

ومن أقواله لأصحابه يوم المسارّة يشحذ هممهم للقتال:

«هذا اليوم هو أسّ ما يُبنى عليه، إما ذلّ الدهر وإمّا عزّ الدهر؛ فاصبروا ساعة فيما لا تشتهون، تربحوا بها بقية أعماركم فيما تشتهون»(٢).

ثانياً - عبد الرحمن الشاعر القويّ الرقيق الخيال:

أورد المؤرخون من شعره الكثير، فحينما أخذه الحنين إلى ربوع الشام، أنشد يقول في تأثّر شديد:

أيّهـا الركب الميـمم أرضي ... اقرأ من بعضي السلام لبعضي
أن جسمي -كما علمت- بأرضٍ ... وفـؤادي ومـالكيـه بأرض
قـدر البين بيننا فـافـترقنا ... وطوى البين عن جفوني غمضي
قـد قـضى الله بالفـراق علينا ... فعسى باجتماعنا سوف يقضي

وحين بلغه أن بعض أصدقائه يمن عليه، ويزعم أنه لولاه لما صار الملك إليه، قال:

سعـدي وحزمي والمهند والقنا ... ومـقـادير بلغت وحـال حـائل
إن الملوك مع الزمـان كـواكب ... نجـم يُـطـالـعـنـا ونجـم آفـل

---

(١) المصدر السابق (جـ٢ ص٦٩).
(٢) المصدر السابق (ص٧٠).

والحزم كل الحزم أن لا يغفلوا ... أيروم تدبير البرية غافل
ويقول قوم سعده لا عقله ... خير السعادة ما حماها العاقل

وأشاد بعضهم أمامه بموقف الغمر بن يزيد بن عبد الملك في مجلس عبد الله ابن عليّ جلاّد بني أمية، ونعيه عليه إثمه في حقهم وسفكه لدمائهم، وفقده لحياته ثمنًا لجرأته، فأنشد عبد الرحمن:

شتان من قام ذا امتعاض[١] ... فشال ما قال واضمحلا
ومن غدا مصلتًا لغرم[٢] ... مجردًا للعداة نصلاً
فجاب قفرًا وشق بحرًا ... ولم يكن في الأنام كلاً
فبنى ملكًا وشاد عزًا ... ومنبرًا للخطاب فصلاً
وجنّد الجند حين أودى ... ومصّر المصر حين أجلى
ثم دعا أهله جميعًا ... حيث انتأوا أن هلم أهلاً

وحينما رأى بروض الرصافة – وهي ضاحيته الجديدة التي أنشأها – عندما رأى نخلة متفردة، أثار المنظر في نفسه ذكريات وشجون، فأنشد يقول:

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة ... تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرب والنوى ... وطول التنائي عن بنيي وعن أهلي
نشأت بأرض أنت فيها غريبة ... فمثلك في الإقصاء والمنتأي مثلي
سقتك غوادي المزن من صوبها ... الذي ويستمرئ السماكين بالويل[٣]

---

(١) يريد الغمر بن يزيد.
(٢) يريد نفسه (عبد الرحمن الداخل).
(٣) «الحلة السيراء» (ص٣٤).

عبد الرحمن المفترى عليه

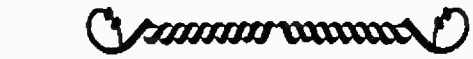

هناك حقيقة لا يُنكرها المؤرخون، وهي أن عبد الرحمن قاعدة لسلوكه، والقسوة ركيزة لسيرته، ولكنه كان معذوراً في ذلك، فقد كان هذا العنف، وتلك القسوة، سمة عامة يتميّز بها ذوو الجاه والسلطان في تلك الفترة من الزمان، ولكنه لا يعتقد أنه تمثل بالملوك في ذلك وهو الذي كان يُصلي بالناس الجمع والأعياد، ويخطب على المنبر، ويعود المرضى، ويُكثر مباشرة الناس، والمشي بينهم[١]، ومن كانت أخلاقه هكذا، فإنه لا يتغير عنها إلاّ إذا كان مخادعًا، يُري الناس من سيرته ما يخفى عنهم منها؛ حتى يتمكن، ثم يعود إلى طبيعته، وعبد الرحمن لم يكن كذلك، بل ظلّ على ذلك حتى نصحه خاصته - كما ذكرنا - آنفًا بألا يخرج للناس، ويبتذل في ذلك، فإن الناس لا تؤمن بوادرهم على الملوك والرؤساء، وكان ذلك نتيجة أن استوقفه رجل من الرعية يطلب الإنصاف من القاضي، كما رواه صاحب «نفح الطيب».

وفي دفاعهم عن شخصية عبد الرحمن، وما أُثير حوله من عنف وقسوة تحدّث بعض المؤرخين فقالوا:

«لقد اكتسب عبد الرحمن العنف والقسوة من أخلاق العرب أنفسهم الذين عاشوا معه في تلك البلاد، فقد وجدهم - إلاّ من رحم ربي - مخادعين، يُظهرون السلامة، ويُضمرون العداوة، يأمن الرجل منهم ويوليه، فإذا اطمأن في مجلسه، ثار عليه، وخرج من طاعته، فكان لابد أن يُغيّر سياسته في حكم البلاد، كان عليه أن يأخذ بالظنّة، وأن يرتاب في كل من حوله، حتى الرجال المخلصين له

---

(١) «نفح الطيب» (٣/٣٧).

ولدولته، كان عليه أن يستعمل العنف؛ ليردع الخونة، ويلتزم القسوة ليزجر المارقين، ولو لم يستعمل عبد الرحمن هذه السياسة لانقضت الدولة، وذهبت في كل واد»[١].

وكان عبد الرحمن أمام موقف شديد الحساسية وشديد الخطورة، فهو يؤسس دولة من عدم، ويُقيم أمة رآها مبعثرة، ويرأب صدعًا، ويُقيم معوجًا، فإذا لم يكن العنف وسيلة في قوم لهم أطماع، ونفوس فيها حقد، لم يستقم الأمر، ولم تقم الدولة، ولم يذكر التاريخ عبد الرحمن إلاّ بالضعف، وعدم القدرة على إقامة الدولة.

لقد وجد عبد الرحمن الفوضى ضاربة أطنابها في أنحاء البلاد المختلفة، كل والٍ يثور في ولايته ليستقل بها، ويحيك المؤامرات؛ لينفصل عن باقي الأقاليم، ولا يجد من يُنازعه، ووجد التنافس على أشده بين القبائل المختلفة، هذا فهريّ، وهذا يمنيّ، هذا عدناني، وذلك قحطانيّ، كل قبيلة تُنافس الأخرى، وتتسابق معها في طريقة حكم البلاد، كما وجد الحقد والحسد يملآن النفوس بين زعماء هذه القبائل، وحكّام هذه المدن، وتلك الثغور.

لقد كانت البلاد منقسمة على نفسها، مما جعل البلاد شيعًا وأحزابًا، وأتاح ذلك الفرصة لحكام البلاد المسيحية في شمال البلاد، أن تتخذ لنفسها مراكز قوية لتامين حدودها مع المناطق الإسلامية، بل احتلال مناطق حيوية، يُهددون بها البلاد الإسلامية، وإلى جانب ذلك، كانت المؤامرات لإتاحة الفرصة للتدخل الخارجي من جانب الخلافة العباسية من جهة والفرنج من ناحية أخرى، ولولا سرعة تصدي عبد الرحمن وسياسته الحكيمة في مواجهة هذه الفوضى لوقعت

---

(١) انظر «دولة الإسلام في الأندلس» ق١ ع١ (ص٣٩١) وما بعدها. وانظر «الأمويون في الشرق والغرب» د/ محمد سيد الوكيل (جـ٢ ص١٥٤) وما بعدها.

البلاد كلها في قبضة الإفرنج الذين كانوا يتربصون بالإسلام الدوائر، ويتحينون بها الفرص.

وكذلك ثورات البربر، تلك هي حال البلاد، فوضى وتمزق، وحقد وحسد، وتمرّد وعناد، ولولا ما فُطر عليه عبد الرحمن من الشهامة والشجاعة، وسرعة النهضة لمقاومة التمرد لضاعت الأندلس، وضاع عبد الرحمن؛ فقد كان يستعمل العنف والقسوة في حال لا يُجدي فيه إلاّ العنف والقسوة، كما أمر بقتل ابن أخيه حين تآمر على الدولة، وأمر بنفي بدر مولاه حينما تكلم بكلام لا يليق بحال الإمارة، وهكذا كان يفعل بمن يستحقون العقوبة[١].

أما مع غير هؤلاء، فقد كان لطيفًا مداعبًا.

فقد روى المقرى أنه لما استتب له الأمر بالأندلس أتاه رجل بربري هو أبو قرة، وكان أبو قرة هذا قد آوى عبد الرحمن والخلافة العباسية تبحث عنه، فأحسن إليه وحظي عنده وأكرم زوجته – نكفات – البربرية التي خباته تحت ثيابها، عندما فتشت رسل ابن حبيب بيتها عنه، فقال لها عبد الرحمن مداعبًا، حين استظلت بظله في الأندلس: لقد عذبتني بريح إبطيك يا نكفات على ما كان بي من الخوف، وأزعجتني بأنتن من ريح الجيف.

فكان جوابها مسرعة: بل كان والله يا سيدي منك خرج، ولم تشعر به من فرط فزعك، فاستظرف جوابها[٢].

كانت هذه البلاد في حاجة إلى شخصية فذة شجاعة عبقرية، مثل عبد الرحمن الداخل، تحكمها وتُدير شؤونها، كان عبد الرحمن فذًا في شجاعته، وفي تفوقه الإداري، وفي سلوكه وأسلوب حياته، بل قُلْ في جميع نواحي الحياة.

---

(١) المصدر السابق (ص١٥٧).

(٢) «نفح الطيب» (٣/٣٧).

كان – رحمه الله – فرداً حين دخل الأندلس، وكان حدثًا لم يتجاوز العشرين من عمره، وكان يُقاوم دولة ترامت أطرافها، واتّسعت شِعابها، ومع ذلك فقد استطاع أن يعبر إلى الأندلس، دون أن يُعيقه حداثة سنه، ولا مقاومة الأعداء، ونجح في إقامة دولة قوية مرهوبة الجانب، عزيزة الأركان، وخاض في ذلك معارك عنيفة.

كانت مدة الأمراء بالأندلس قبل عبد الرحمن الداخل منذ فُتحت إلى يوم هزيمة أميرها يوسف الفهريّ والصُّميل ستًا وأربعين سنة وشهرين وخمسة أيام؛ فقد كان الفتح لخمس خلون من شوال سنة (٩٢ هـ – ٧١١ م) وكانت هزيمة يوسف لعشر خلون من ذي الحجة سنة (١٣٨هـ – ٧٥٦ م)[١].

وظلّ يوسف الفهري أميراً على الأندلس تسع سنين وتسعة أشهر، وانتقلت إمارة الأندلس إلى عبد الرحمن الداخل، بعد هزيمة يوسف الفهري والصميل، حيث استفحل أمره بها، ودانت له البلاد، ولعقبه من بعده إلى بعد الأربعمائة، هذا هو صقر قريش وأيامه العظيمة في الأندلس.

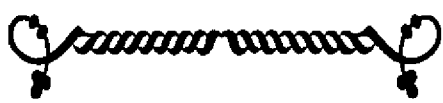

(١) المصدر السابق (٣/٥٣).

أبناء الداخل

هشام بن عبد الرحمن بن معاوية

توفي عبد الرحمن الداخل في الرابع والعشرين من (ربيع الآخر سنة ١٧٢هـ - ١٢ أكتوبر سنة ٧٨٧م) وهو في نحو الثامنة والخمسين من عمره، بعد أن حكم الأندلس ثلاثة وثلاثين عامًا ملؤها الخطوب والفتن، فخلفه ولده هشام بعهدٍ منه لأيام قلائل من وفاته.

التعريف بهشام:

هو هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، وُلِدَ بقرطبة لأربع خلون من شهر شوال سنة (١٣٩هـ - ٧٥٧ م) ويُعرف بالرضا لعدله وفضله، ويكنى أبا الوليد[١].

أمه أم ولد تُدعى حُلَل، كانت بارعة في الحسن، رائعة الجمال، فأحبها عبد الرحمن، وكانت أحب نسائه إليه، وأقربهم إلى قلبه، وأعلاهم كلمة عنده، فيُحكى أن أم عثمان زوجة يوسف الفهري، حضرت إليه بصحبة ابنتيها، تطلبان الأمان والحماية من الأمير عبد الرحمن بعد أن تمّ له النصر على زوجها، ودخل قرطبة، قالت له: «يا ابن عمّ كنْ كريمًا معنا كما كان الله كريمًا معك»، فتأثر عبد الرحمن من كلامها، ومما أصابها هي وبناتها، وهنّ جميعًا لهن قرابة وصلة بعائلته، بنسب وقرابة، فأكرمهن عبد الرحمن، وردّ إليهن ما كان عسكره قد استولوا عليه منهن من مجوهرات، وأنزلهن منزلة حسنة.

وتعبيراً عن سرورهن بفعل الأمير، قدمت له إحداهن هدية متواضعة، هي إحدى جواريها الجميلات، وهي شابة تدعى حُلَل[٢].

---

(١) «الحلة السيراء» لابن الابار (١/ ٤٢).

(٢) «الامويون امراء الأندلس الأول» احمد إبراهيم الشعراوي (ص١٣٩).

كان هشام أبيض أشهل، مشربًا بحمرة، وبعينيه حَوَل، وكان نقش خاتمه «بالله يتقي هشام وبه يعتصم». وصاحب شرطته: عبد الغفار بن أبي عبده، وكاتباه اثنان: فطيس بن عيسى، وخطّاب بن يزيد، وقاضيه: المصعب بن عمران، وحاجبه: عبد الرحمن بن مغيث.

هشام ولي العهد والأمير بعد أبيه:

كان الأمير عبد الرحمن الداخل قد عهد إلى أحد ولديه: هشام وسليمان، وكان هشام واليًا على ماردة حين وفاة أبيه، وأما سليمان، فكان واليًا على طليطلة، فلما حضرت عبد الرحمن الوفاة، كان ابنه عبد الله المعروف بالبَلَنس موجودًا في القصر، فقال له أبوه: من سبق إليك من أخويك فارمِ له بالخاتم والأمر، فإن كان هشامًا فله فضل دينه وعفافه، واجتماع الناس عليه، وإن سبق إليك سليمان، فله فضل سنِّه ونجدته وحب الشاميين له[١].

وكان أبوهما عبد الرحمن قد استوزرهما تنويهًا بشأنهما، فكانا يركبان إلى القصر متناوبين لا يجتمعان.

فإذا كان يوم هشام تأهب حاضروا المجلس من كبار أهل المملكة لما سيقولون، فيفيضون في الحديث إلى إنشاد شعر، أو ضرب مثل، أو ذكر يوم من أيام العرب، أو ذكر حرب، أو اجتلاب حيلة أو حكاية تدبير.

وإذا كان يوم سليمان خلا المجلس من ذلك كله، وانبسط الحاضرون في غث الأحاديث، وأخذوا في المداعبة[٢].

وفي سبيل اطمئنانه عليهما كان الداخل يسأل عنهما كثيرًا، فيقول الناس: إن هشامًا إذا حضر مجلسًا امتلأ أدبًا وتاريخًا، وذكرًا لأمور الحرب، ومواقف الأبطال، وإذا حضر سليمان امتلأ المجلس سخفًا وهذيانًا، فيكبر هشام في عينيه، بقدر ما يصغر سليمان.

---

(١) «البيان المغرب» (٢/ ٦١).

(٢) «الحلة السيراء» (١/ ٤٢).

وكان عبد الرحمن الداخل يُريد التأكد بنفسه من كل ما يسمعه عن ولديه هشام وسليمان، فقال الداخل يومًا لابنه هشام: لمن هذا الشعر؟

وتعرف فيه من أبيه شمائلا ومن خاله أو من يزيد ومن حُجُرْ
سماحة ذا وبرّ ذا ووفاء ذا ونائل ذا إذا صحا وإذا سكرْ

فقال هشام لأبيه: يا سيدي، لامرئ القيس ملك كندة، وكأنه قاله في الأمير - أعزّه الله - ؛ فضمّه عبد الرحمن إليه؛ استحسانًا بما سمع منه، وأمر له بإحسان كثير، وزاد في عينه.

ثم انفرد بسليمان، وقال له: لمن هذا الشعر؟ وأنشده البيتين، فقال: لعلّهما لأحد أجلاف العرب، أما لي شغل غير حفظ أقوال بعض الأعراب. فأطرق عبد الرحمن، وقد علم ما بين الاثنين من المزية[١]. لهذا كان هشام أقرب إلى قلب والده عبد الرحمن، وكان يتمنى أن تؤول الوزارة إليه، غير أنه لم يحب أن يُعيّن هشامًا؛ حتى لا تقع الضغينة بين الأخوين، وحتى لا تكون فتنة، فترك الأمر لعبد الله، من يلحق به أولاً يعطى الخاتم والأمر وتفوّض إليه مقاليد الحكم.

وكانت وفاة عبد الرحمن وهشام والٍ على ماردة يوم الثلاثاء لست بقين من ربيع الآخر[٢]، وقيل غير ذلك.

ووصل هشام الخبر، فأسرع في السير، حتى وصل قرطبة بعد ستة أيام، فبايعه أخوه عبد الله، وسلّمه خاتم الإمارة، وبايعه العامة والخاصة[٣]. وكان ذلك في يوم الأحد غرة جمادى الأولى سنة (١٧٢ هـ - ٧٨٧ م)، وكان عمره حينئذ ثلاثين سنة[٤]، وعلم أخوه سليمان بذلك، فحشد الحشود، وجنّد الأجناد، وهو يُريد قرطبة مخالفًا لأخيه، فلما وصل - جيَّان - خرج إليه هشام في أجناده، والتقى الجيشان بجهة بملج، ووقعت بينهما حربًا قاسية - سنعود إليها - .

(١) «نفح الطيب» (١/ ٣٣٤).
(٢) «الحلة السيراء» (١/ ٤٢).
(٣) «البيان المغرب» (٢/ ٦١).
(٤) «الامويون امراء الاندلس» الشعراوي (ص١٣٩).

صور من حياة هشام

مع التنجيم والمنجمين

كان للمنجمين عند الخلفاء والملوك والأمراء منزلة سامية، بشرط أن يخبروهم بما يُريدون، أو يقولون لهم ما يشتهون، عندئذ ترتفع منزلتهم، وتعلو مكانتهم، والغريب أن الملوك بعامة يثقون فيما يقوله المنجمون، ولا يتنازلون عمّا سمعوه منهم، وإن كان بعضهم يُؤمن بأن الغيب بيد الله، لا يعلمه أحد سواه، ولكنهم مع ذلك لا يتنازلون عن تقديرهم للمنجمين، ويُحبون أن يستمعوا إليهم، ويسمعوا منهم، ومما جاء في «نفح الطيب» للمقري[١]: أن من هؤلاء هشام بن عبد الرحمن، أمير الأندلس الأموي، فإنه مع مطلع ولايته للأندلس، بعث في طلب «الضبي» المنجم المشهور، أرسل إليه في المدينة التي كان يُقيم فيها – وهي الجزيرة الخضراء – وأحضره إلى قرطبة، وكان الضبي حاذقًا في علوم النجوم، فلما حضر الضبي إلى هشام، خلا به، وقال له: يا ضبي، لستُ أشكّ أنه قد عناك من أمرنا إذ بلغك ما لم يدع تجديد النظر فيه، فأُنشدك الله إلاّ ما أنبأتنا بما ظهر لك فيه. فلجلج وقال: اعفني أيها الأمير؛ فإني ألممت به، ولم أحقق النظر فيه؛ لجلالته في نفسي.

فقال له: قد أحلتك لذلك، فتفرغ للنظر فيما بقي عليك منه.

ثم أحضره بعد أيام، فقال: إن الذي سألتك عنه جدّ مني، مع أني – والله – ما أثق في حقيقته، إذ كان من غيب الله الذي استأثر به، ولكني أُحبّ أن أسمع ما عندك فيه؛ فالنفس طُلَعة، وألزمه الصِّلة أو العقوبة.

---

(١) «نفح الطيب» (١/ ٣٣٤).

فقال الضبي: اعلم أيها الأمير أنه سوف يستقر ملكك، سعيداً خبرك، قاهراً لمن عاداك، إلاّ أنّ مدّتك فيه - فيما دلّ عليه النظر - تكون ثمانية أعوام أو نحوها.

فاطرق هشام ساعة، ثم رفع رأسه، وقال: يا ضبي، ما أخوفني أن يكون النذير كلمني بلسانك، والله لو أن هذه المدة كانت في سجدة لله - تعالى - لقلت طاعة له. ووصله وخلع عليه، وزهد في الدنيا، والتزم أفعال البر[١].

اعتمد هشام هذه النبوة، ورأى أن يقضي هذه المدة في الصلاح والتقوى وعمل الخير، والجهاد في سبيل الله؛ ولذلك فقد كان عاقلاً حازمًا، وافر الشجاعة والعزم، كثير العدل والتقوى، جمّ التواضع والرفق.

وتُشيد الرواية الإسلامية بميل صفاته وخلاله، وتُنوّه بالأخص بورعه وتواضعه، وحبه للخير، فيقول لنا ابن عبد ربه، صاحب «العقد الفريد» أنه: «كان أحسن الناس وجهًا، وأشرفهم نفسًا، الكامل المروءة، الحاكم بالكتاب والسُّنَّة، الذي أخذ الزكاة على حلها، ووضعها في حقها، لم يعرف عنه هفوة في حداثته، ولا زلة في أيام صباه»[٢].

وقيل: بلغ من تواضعه أن كان يطوف شوارع قرطبة مختلطًا بالرعية يسمع المظالم بنفسه، ويعود المرضى، و يشهد الجنائز، وربما كان يخرج في الليالي المظلمة الممطرة، فيُلقي بصُرر المال في المساجد لمن وجد فيها؛ بغية تعميرها بالمصلين، ويسعى إلى غوث البائس والمسكين بمختلف الوسائل[٣].

وكان يذهب مذهب عمر بن عبد العزيز، في تحرّي الحق والعدالة، فكان

---

(١) «نفح الطيب» (١/ ٣٣٤) وانظر ابن القوطية «تاريخ افتتاح الاندلس» (ص٦٤).

(٢) «العقد الفريد» (جـ٣ ص٢٠٢).

(٣) «المعجب» للمراكشي (ص١٠).

يبعث إلى الكور بقوم من ثقاته؛ للتحري عن مسلك العمال وسيرهم بين الرعية، فإذا انتهى إليه حَيْفٌ من أحدهم اشتدّ عقابه[١].

وكما ذكرنا فقد كان هشام – رحمه الله – يسير بسيرة عمر بن عبد العزيز في الرعية، فكان يبعث إلى البلاد قومًا عدولاً، يسألون الناس عن سير العمال (الولاة) فيهم، ثم ينصرفون إليه بما حملوا من أنباء، فيصرف ما يصرف من أعمالهم على وجهها الصحيح، أو يزيل من العمال من لم تُعجبه سيرته.

فقد اعترض له يومًا متظلم من أحد عماله، فأحضر الشاكي، وقال له: احلف على كل ما ظلمك فيه، فإن كان ضربك فاضربه، أو هتك لك سترًا فاهتك ستره، أو أخذ لك مالاً فخذ من ماله مثله، إلاّ أن يكون أصاب منك حدًّا من حدود الله، فجعل الرجل لا يحلف على شيء إلاّ أقيد (أُخِذَ) منه[٢].

وكان هشام كريمًا متواضعًا فاضلاً عاقلاً، لم تُعرف منه هفوة في حداثة سنه، ومن كرمه أنه كان يصر الأموال، ويخرج بها بين المغرب والعشاء، يتفقّد المسجد، فإذا وجد أحدًا يُصلي في المسجد أو لا يصلي، وضع بين يديه صرة، يقول ابن عذارى: «حتى كثرت عمارة المساجد»[٣].

ويقول المقري[٤]: ومن محاسنه أنّه جدّد القنطرة التي يُضرب بها المثل بقرطبة – وكان قد بناها السمح الخولاني عامل عمر بن عبد العزيز رحمه الله – فأحكم هشام بناءها إلى الغاية.

وقال يومًا لأحد وزرائه: ما يقول أهل قرطبة؟

---

(١) «البيان المغرب» (جـ٢ ص٦٧).

(٢) «البيان المغرب (٢/٦٦).

(٣) «البيان المغرب» (٢/٦٦).

(٤) «نفح الطيب» للمقري (١/٣٣٨).

فقال: يقولون: ما بناها الأمير إلاّ ليمضي عليها إلى صيده وقنصه

فآل هشام على نفسه ألاّ يسلك عليها، فلم يمر عليها بعد، ووفى بما حلف عليه[١].

أما ابن عذارى فيقول: فحلف حين بلغه ذلك ألاّ يجوز عليها إلاّ لغزو أو مصلحة[٢].

وكان هشام جالسًا لراحته في علّية على النهر في حياة والده عبد الرحمن الداخل، فنظر إلى رجل من أهل جيّان من صنائعه، يقدم عليه الهاجرة، فأنكر ذلك، وتوقع شرًا وقع عليه من قِبَل أخيه سليمان، فأمر بأن يدخل عليه الرجل، وقال له: مهيم يا كناني، فلأمر ما جئت، وما أحسبك إلاّ مزعجًا لأمر ما دَهَمَك؟

فقال الرجل: نعم، يا سيدي، قتل رجل من قومي رجلاً خطأ، فحملت الدية على العاقلة فأخذ بها من كنانة عامة، وحمل على من بينهم خاصة، وقصدني أخوك بالاعتداء إذ عرف مكاني منك.

فمدّ هشام يَدَه إلى جارية كانت وراء الستر، وقطع قلادة عقد نفيس كان في نحرها، وقال له: دونك هذا العقد يا كناني، وشراؤه على ثلاثة آلاف دينار، فلا تخدعنّ عنه، وبعه، وادّ عن نفسك وعن قومك، ولا تُمكن الرجل من اهتضامك.

فقال الرجل: يا سيدي، لم آتك مستجديًا، ولا لضيق المال عمّا حملته، ولكني لما اعتُمِدتُ بظلم صراح، أحببت أن يظهر عليَّ عزُّ نصرك، وأثرُ ذبِّك وامتعاضك، فأتمجّد بذلك عند من يحسدني على الانتماء إليك.

فقال هشام: فما وجه ذلك؟

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) «البيان المغرب» (٢/٦٦).

فقال الرجل: أن تكتب إلى أخيك في الإمساك عني، والقيام بذمتك لي.

فقال هشام: أمسك العُقد، وركب من حينه إلى والده الداخل، واستأذن عليه في وقتٍ أنكره، فانزعج، وقال: ما يأتي بأبي الوليد في هذا الوقت إلاّ لأمر مقلق، فأذنوا له. فلما دخل عليه سلّم، ومثل قائمًا بين يديه.

فقال له: اجلس يا هشام.

فقال: أصلح الله الأمير سيدي، وكيف جلوس بهمٍّ وذل مزعج، وحُقّ لمن قام مقامي لا يجلس إلاّ مطمئنًا، ولن يقعدني إلاّ طيب نفس بإسعاف الأمير لحاجتي، وإلاّ رجعت على عقبي.

فقال له: حاشى لك من انقلابك خائبًا، فاقعد مجابًا مشفعًا، فجلس.

فقال له أبوه: فما الحدث المقلق؟ . فاعلَمَهُ به.

فأمر أن يحمل الدية عنه وعن عشيرته من بيت المال؛ فسرّ هشام، وأطنب في الشكر، وكتب الأمير إلى ولده سليمان في ترك التعرض لهذا الكناني. ولما دخل الكناني لوداع هشام قال له: يا سيدي، قد تجاوزت بك حد الأمنية، وبلغت غاية النصر، وقد أغنى الله عن العقد المبذول بين يدي العناية الكريمة، فنُعيده إلى صاحبته، فأبى من ذلك، وقال: لا سبيل إلى رجوعه إلينا[١].

وكان زياد بن عبد الرحمن صاحب الإمام مالك في زيارة للمدينة، فوصف هشامًا له، فقال الإمام مالك: ليت الله – تعالى – زيَّن موسمنا بمثل هذا[٢].

وكان لهشام بصمات، أو قلْ حسنات، حيث أنه أكمل سعائف المسجد الجامع بقرطبة، ورفع مناراته القديمة، وبنى الميضأة العجيبة[٣].

ومن حسناته أيضًا أنه أخرج المصدّق لأخذ الزكاة على الكتاب والسنّة[٤].

---

(١) «نفح الطيب» للمقري (١/٣٣٥).

(٢) المصدر السابق (ص٣٣٧).

(٣) ابن عذارى في «البيان المغرب» (٢/٦٨).

(٤) «نفح الطيب» (١/٣٣٥).

ويقول أحد قضاة عصره، وهو أبو معاوية: أدركت صدراً من الناس يحكون أن أيام هشام هذا كانت الدعة والعافية والهدوء، بحيث لم يعلم لها مثل، وكان يحضر الجنائز، ويُزاحم فيها، كأنه أحد من الناس تواضعاً.

وكان لبعض رجال هشام خصومة في دار عند القاضي مصعب بن عمران، فسجل عليه القاضي فيها، وأخرجه منها، فنهض الرجل إلى هشام، وقال له: إن القاضي سجل عليّ في داري التي أسكنها، وأخرجني عنها.

فقال له هشام: وماذا تريد مني، والله لو سجل على القاضي في مقعدي هذا لخرجت عنه[١].

وهذا يدل على أن هشاماً - رحمه الله - كان ملتزماً في حكمه بكتاب الله وسنّة رسوله، وأنه لم يكن يقعده عن هذا قرابة قريب، أو صداقة صديق؛ ولهذا هدأت البلاد في عهده بما لم تألفه في عهود سابقة، ودرت فيها الخيرات، فأصبحت سابغة، لم تأخذه في الله لومة لائم، ولم يُتهم في حكمه بظلم، بل كان مثال العدل والحكمة - رحمه الله رحمة واسعة - .

(١) «البيان المغرب» (٢/٦٨).